بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة لفضيلة الشيخ علاء الدين السايق

وألف بين قلوبهم

الحمد لله الذي تقدست عن الأشباه ذاته، ودلت على وجوده آياته ومخلوقاته، وَسِع الخلائق خيره، ولم يسع الناس غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا مُحَمَّد ﷺ، لا نبي بعده، اللهم اجعل عملنا كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل فيه لأحد غيرك شيئاً.

وبعد أحبتي في الله، يُحكى أن أخوين كانا يَعيشان في توافق ووداد ومحبة، يعيشان في مزرعة واحدة، يزرعان معاً، يحصدان معاً، إلى أن جاء اليوم الذي حَصل فيه سوء تفاهم بين هذين الأخوين، ومع الأيام اتسعت الهوة وزاد الخلاف، فوصل الأمر إلى أن أحدهما لا يُطيق أن يرى وجه أخيه، وكان يَفصل بين مزرعتيهما نهر، فجاء عامل فطرق باب الأخ الأكبر، وقال له: هل عندك عمل؟ فأجاب هذا الأخ الأكبر على الفور: نعم عندي لك عمل، وأخذه إلى مزرعته، وأشار إليه إلى كومٍ من الحجارة، فقال: أريد منك أن تَبني بيني وبين أخي جداراً، فأنا لا أريد أن أراه ولا يراني، فتبيّن هذا العامل هذه المشكلة، وبعد أن أخبره الأخ الأكبر أن أخاه قد أساء إليه، المهم، ترك هذا الأخ العامل في الأرض أعطاه المعدات والمؤنة، وقال: ابن الجدار، ثم نزل للمدينة لبعض حاجته، وبعد أيام عاد وكانت المفاجأة، دخل فوجد العامل لم يبن سوراً ولم يبن حائطاً ولا جداراً بينه وبين أخيه، إنما بنى جسراً فوق النهر بين المزرعتين، وفي تلك المرحلة وفي هذا الموقف، لما دخل الأخ الأكبر فرأى أن العامل بنى جسراً بين مزرعته وبين مزرعة أخيه، دخل الأخ الأصغر، فقال في نفسه: يا له من أخ رائع، أُسيءُ إليه ويبني وبيني جسراً، عبر الجسر إلى الضفة الثانية، وأقبل على أخيه واعتنقه وتصالحا.

هذه القصة -أيها الأفاضل- الرمزية تقول لنا: أننا في هذه الأيام أحوج ما نَكون إلى بناء جسور المحبة فيما بيننا، لا نريد في هذه الأيام ويكفينا أن نبني جدراناً من البغضاء والعداوة والإحن فيما بيننا، نحتاج -أيها الإخوة الكرام- أن نحقق مراد الله فينا، وأن نحقق مقصد الشريعة الأعظم يوم أرادنا الله مُتحابين متواددين متآلفين، بل إنه سبحانه وتعالى جَعل مِن النِّعم التي مَنَّ بها على المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِم﴾ [الأنفال: ٦٣] ألم يَقل سبحانه وتعالى -وهذا ما ذكرناه في اللقاء السابق-: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاء﴾ [آل عمران: ١٠٣] آلله أمرنا أن نكون أعداء؟ لا والله، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى يوم تحدث عن النصر الأكبر في غزوة الفرقان، قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِين﴾ [الأنفال: ٦٢] وبين أسباب النصر فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّف﴾ [الأنفال: ٦٣] من الذي تدخل إذاً؟ الله تدخل فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّف﴾ اللهم ألف بين قلوب المسلمين جميعاً، واجمع كلمتنا على الهدى والتقوى.

هذا المرحلة الحاسمة من حياة الأمة لا تحتاج إذاً إلى جدران مع عداوة وبغضاء، تحتاج إلى جسور محبة، وإن مما يُساعد على بناء جسور الود والمحبة بين المسلمين أن نَعلم أن مشاعر المسلمين يَجب أن تكون محترمة، أن مشاعر الناس جميعاً في شريعة الإسلام لَيست مَشاعاً وعرضة للأذى، لذلك جاءت شريعة الإسلام فَأمرتنا أن نَكُفَّ الأذى، ليس فقط عن الأموال والأنفس والأعراض، إنما أن نَكف عن الناس الأذى ولو في مشاعرهم، وهذا ما نريد أن نتحدث عنه اليوم، فشريعة الإسلام في نصوصٍ عديدة بَيَّنت لنا أن مِمَّا تَقصد إليه وتهدف إليه صيانة المشاعر، مراعاة الأحاسيس، فمثال ذلك -ونأتي على أمثلةٍ في عجالة لننتقل فوراً إلى بعض صور الإيذاء إيذاء المشاعر الذي نتعرض له اليوم ويزيد الهوّة بين المسلمين بعضهم بعضاً- فمن ذلك مثالاً ما رواه لنا الشيخان في صحيحهما من حديث عبد الله بن

مسعود، أن النبي ﷺ قال: ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر)) ما العلة؟ جاء الحكم مُقترناً بعلته، من أجل أن ((ذلك يحزنه)) يُؤذي مشاعره، وفي رواية الترمذي قال عليه الصلاة والسلام: ((فلا يتناجى اثنان دون الآخر، فإن ذلك يؤذي المؤمن والله يكره أذى المؤمن)) ما أسمى هذه الشريعة، والله إن الإنسان ليشعر بالفخر لأنه ينتمي إلى شريعة الإسلام، وأنه ينتمي إلى هذا الدين الحريص على مشاعرك أن تجرح، الحريص على أحاسيسك أن تخدش، لذلك قال: ((فإن ذلك يحزنه)) أو ((من أجل أن ذلك يحزنه)) ولماذا يُحزنه؟ قال الإمام الخطابي: يُحزنه لمعنيين: أما الأمر الأول فإنه قد يَظن أنهم يَمكرون به ويُبيتون فيه أمراً، وهذا من أبواب العداوات، قال: وأما الأمر الآخر وهو أشد، لأنه يَشعر نفسه ليس أهلاً لهذه الكرامة، حِينما تُحدث رجل على انفراد في مجلس عن الناس، يَشعر بأنك قَد تركته وحيداً وهو ليس أهلاً للكرامة، شاهدنا في الحديث، إذاً هنا الحديث يتحدث عن مشاعر الخلق، ومن الذي يكره أذى الخلق؟ إنه الله، فإما ذلك يُؤذي المؤمن والله يكره أذى المؤمن.

نأتي إلى تأصيل آخر أو دليل آخر يُؤصل المسألة، الإسلام يدعونا إلى إغلاق ملفات الماضي، وإلى أن نَطوي الصحائف السوداء، قد يأتيك رجلٌ كان لأبيه تاريخ أسود، كان فاسداً مفسداً ماجناً مُغرقاً في الفسق، فيأتيك الشرع ليقول لك، فإذا ما مات هذا الرجل لا ينبغي لك ولا يجوز بحال أن تجرح مشاعر ذويه وذي قرابته وأولاده بأن تذكر مساوئ أبيه، فلذلك قال ﷺ في الحديث الذي أصله في البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، قال عليه الصلاة والسلام يوم سمع رجلاً من أصحابه يسبّ رجلاً من المشركين، وهذا الرجل كان ممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه، ماذا كان التعقيب؟ قال عليه الصلاة والسلام: ((ما بال أقوام يؤذون الأحياء بسب الأموات؟ ألا لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات)) عندما يَأتي رجلٌ أمام رجل يبقى أبوه، أبوك كان فاسداً، أبوك كان مجرماً، أبوك كان ...،

وبعد ذلك ما الفائدة من هذا غير أنك تخدش مشاعر هذا الرجل؟ لذلك ما أسمى هذه الشريعة، وما أروع هذه القوانين وهذه الضوابط التي رعتها شريعة الإسلام في مشاعر الناس.

بل أزيدكم من الشِّعر بيتاً آخر، يَوم سئل النبي عليه الصلاة والسلام من قبل رجل من الصحابة عن حقوق الجار، وما أكثر ما نُفرط ونَفرِّط اليوم في حقوق الجار، سأله رجل كما رَوى البيهقي من حديث الشعب، من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قلت: يا رسول الله، ما حق جاري علي؟ فعدَّ له حقوقاً، قال في آخرها -واسمعوا إلى ما قال- قال: ((ولا تؤذيه)) بهذا اللفظ، ((ولا تؤذيه بريح قدرك إلاَّ أن تغرف له منه)) ووصل الأمر إلى الإيذاء بمجرد رائحة الطعام التي قد لا يَستطيع هو أن يصنع مثله، يوم يقوم رجل بحفلة شواء للحم جاره قد ما يملك، وربما يمر الشهر والشهران ولا يرى اللحم في بيته، سوف يَجرح ذلك مشاعره ويخدش أحاسيسه، قال لك عليه الصلاة والسلام: ((لا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تغرف له منه)).

أعتقد -أيها الإخوة الكرام- هذا يُبرهن ويُدلل على سمو هذه الشريعة، وعلى نقاء وصفاء هذه الأوامر والنواهي التي رَعَت لنا المشاعر وحفظت لنا الأحاسيس، وهنا يَهجم على خاطري الآن موقف لرجل من صفوة الخلق، من أنبياء الله، والله يا إخوة شيء يُحير العقول والألباب، هؤلاء الصفوة، إنه يُوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عاش معاناة ربع قرن، وهذه المعاناة التي آلمته والتي آلمت سيدنا يعقوب في فراق ولد، معاناة ربع قرن، تعرفون القصة، مكر به إخوته، لما حدثنا القرآن عن انتقاء يوسف لعباراته أمام مَوقف عَجيب وهو خضوع إخوة يوسف له، فقال ربنا: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ ماذا قال يوسف؟ ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ اسمعوا إلى ما قال، قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لم يَقل وقد أحسن بي إذ أخرجني من الجبّ، مع أن

الجب مهلكة محتّمة، لا تُقاس بالسجن، فالسجن فيه ما فيه من المرافق العامة والطعام والشراب والكساء والدواء وغير ذلك، لماذا يختار وينتقي يوسف عليه السلام، ينتقي السجن ويقدم السجن على الجب، كي لا يخدش مشاعر إخوته، لأنهم هُم الذين ألقوه في الجب، وهو الذي قال لهم حينما اعترفوا بخطئهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] قال على الفور: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُم﴾ [يوسف: ٩٢] الله أكبر على هذه القلوب، لا تثريب، والتثريب هو العتاب، حتى العتاب ألغاه ومحاه يوسف عليه السلام، لذلك قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] تابع سياق الآيات: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ ولما اضطر إلى الحديث عن فعلة إخوته نَسب الأمر كله لمن؟ للشيطان، مع أن الله قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥] عن سبق إصرار وترصد، أرادوا إهلاكه، فماذا قال يوسف: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] فنسب الأمر كله للشيطان، وَبَرَّأ إخوته عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

أرأيتم -أيها الإخوة الكرام- منهج القرآن في رعاية المشاعر؟ هذه القصة التي قال الله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] وما أكثر صور إيذاء المشاعر اليومية، وكم كنت أود لو يتسع الزمان لأذكرها جميعاً، ولكن أذكر بعضها على عجل الأمر.

الأول -أيها الإخوة الكرام- والصورة الشنيعة التي نُعاني منها اليوم في إيذاء مشاعر بعضنا بعضاً اللامبالاة، أن لا تَشعر بما في أخيك، أن لا تشعر به، إن المؤمن الذي تَوطن حب الله قلبه يَشعر بالآخرين، يتألم للآلامهم، يبكي مع الباكي، ويَفتقر مع الفقير، ويَجوع مع الجائع، هذا هو المؤمن، بأن هذا الرجل من نفسه كالعين والرأس، لذلك -أيها الإخوة الكرام- قال الله في وصف سيد الأنام عليه الصلاة والسلام:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي يُعنته ويَشق عليه الأمر الذي يشق عليكم، هذا هو المؤمن، شعورك بالآخر يَمسح عنه كثيراً من العناء، أما اللامبالاة هي مِن أشنع صور إيذاء المشاعر التي نُعاني منها اليوم في الأزمة -أيها الأفاضل- فربما تجد فرحاً صاخباً، وتجد سعادة غامرة عند الخلق، لا بد أن تعيش وأن يَشعر مَن فقد بيته أنك تشعر به، هناك مَن فقد زوجته، هناك من فقد أولاده، هناك مَن فقد أباه، هناك مَن فقد بعض أعضائه، يُريد مِنك أن تَشعر به فقط، يَشعر أنك تَعيش منه الألم، قبل أن تقدم له ما تقدم إن كنت تملك، فهذا من أروع -أيها الإخوة الكرام- سمات المؤمن الذي توطّن حب الله قلبه، أما اللامبالاة إنها من أبشع وأشنع صور إيذاء المشاعر، لذلك -أيها الإخوة الكرام- يَعجب المرء ويزداد عجبه كلما قَرأ في سير السلف، حينما يَرى مِنهم شَفافية عالية، ويَرى مِنهم حِسَّاً مُرهفاً عجيباً، فيقول أبو بكر الحربي وهو يُحدث يَوماً عن السقطي، يقول: سمعت السري يقول يوماً: لقد قلت يوماً ما زلت أستغفر الله لها إلى اليوم، فقال له أبو بكر: ما هي؟ قال له: الحمد لله، قال: سبحان الله، تقول الحمد لله، وهي ذكر، وتستغفر الله منها؟! فقال: نعم، قال: فما القصة؟ قال: جَاءَ حَريق فأكل سوق بغداد في يوم من الأيام، والسري له دُكّانٌ فيها، فهرع الناس فجاء الرجل فاستقبلني، وقال لي: لقد أَكل الحريق السوق، ولكنه قَد نَجَا دكانك، فقال السري ببهجة وفرح: الحمد لله، قال: ثم تفكرت -وهو يقول الحمد لله بفرح- فإذا أنا فرح مسرور بسلامة مالي دون النظر إلى أموال المسلمين، فما زلت إلى اليوم أستغفر الله منها، شعور مرهف وحس عالي، لذلك -أيها الإخوة الكرام- كلنا جميعاً يُحب أن يُزحزح عن النار، كلنا جميعاً يَطمع أن يكون من أهل الجنة، ألم يقل ربنا: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] اسمعوا إذاً إذا كنتم تُريدون ذلك، روى الإمام مسلم في صحيحه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ وعن أبيه قال: قال ﷺ: ((من أحب -إذاً الحديث لمن أحب، لمن له الرغبة فقط- من

أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يَشهد أن لا إله إلا الله، فلتأته منيته وهو يُؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذِي يُحب أن يُؤتى إليه)) هذه القاعدة، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه، اعمل تبديل في الشخصيات فقط، كيف تُريد أن تشعر؟ كيف تحب أن تُعامل؟ تبديل في الشخصيات فقط، لذلك لما ولى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه رجلاً والياً على الإمارة، قال له: اجعل كَبير المسلمين لك أباً، واجعل صغيرهم ابناً، واجعل أوسطهم أخاً، فأي أولئك تُحب أن تسيء إليه؟ هَذه قاعدة، اعمل اليوم تبديل بالشخصيات، ضع نفسك بالطرف الآخر، كيف تُحب أن تُعامَل عامل الناس بهذا المقتضى، لذلك رحم الله الإمام النووي حينما قال في شرحه على صحيح مسلم على هذا الحديث مُعلقاً: فهذا حديث مِن جوامع كلمه ﷺ، ومن بدائع حكمه، وهو قاعدة يَنبغي أن يُعتنى بها.

إذاً اعتنوا بهذا القاعدة في هذه الأزمة لكي نضع أنفسنا في الطرف الآخر ونقوم بعميلة تبديل -أيها الإخوة الكرام- في الشخصيات.

هناك صور عديدة الزمان لا يتسع لها، لكن أعتقد أن المسألة قد وصلت، وأنكم الآن تشعرون -أيها الإخوة الكرام- سمو هذا الدين الذي سماه ربنا بالدين القيّم، هذا الدين القيّم الذي تَنتمي أنت إليه، هذا الدين القيم، مِن قيمه ومن أصوله مُراعاة مَشاعر الناس، من أصوله مُراعاة مشاعر الناس، وصِيَانة أحاسيس الناس جميعاً، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

اللهم ألهمنا رشدنا، وقنا جميعاً شرور أنفسنا، وصل وبارك على سيدنا مُحَمَّد مُعلم الناس الخير، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أنك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.